العرب
الإثنين 2020/04/13
السنة 42 العدد 11676

الحجر المنزلي إقامة فخمة لا تشبه السجن

الحياة في بيت مغلق أفضل من موت بفايروس يكتسح الشوارع

يتأفف القابعون في المنازل من فترة الحجر الصحي في البيوت التي فرضتها السلطات ورأى الأطباء أنها أنجع الحلول الأولى للحماية من انتشار فايروس كورونا الذي اجتاح العالم. الذين لا يعون خطر هذا الوباء يقولون إن إلزامهم بالبيت هو بمثابة الحكم بالسجن، لأنه نوع من تقييد الحرية، لكن الذين قضوا فترات من السجن يرون غير ذلك، فهي عطلة فخمة في المنزل بين العائلة.

لطيف جابالله
صحافي تونسي

تونس – لا مظاليم في الحجر المنزلي، هذا ما يقوله صالح الأسمر التونسي الذي قضى سنوات طويلة في الغربة بعضا منها وراء أبواب السجن ندم عليها اليوم.

قد يستحق المرء أن يدخل السجن لفترة من أجل إدراك غاية ما، يقول الأسمر الذي يبلغ من العمر اليوم (61 سنة)، إنه حين دخل إلى روما في أواخر ثمانينات القرن الماضي، كان ينام في الحدائق والبيوت الخراب، أو في البونسيونات الرخيصة في الربيع والصيف وحتى الخريف، فذلك ممكن لشباب أتوا لتحقيق أحلامهم التي اكتشفوا أنها سراب، لكن شتاء أوروبا بارد، بل قاتل، لا يستطيع أعتى الرجال تحمل برودة تحت الصفر.

يواصل الأسمر الذي كان متعلقا بالوهم آنذاك حكايته، لم يكن الأمر يحتاج إلى بيت خال من مالكيه لخلعه والإقامة فيه، ففي الشتاء الطويل، لا أعمال موسمية، حتى سرقة محافظ النقود تصبح مستحيلة لأنها مخبأة تحت المعاطف، لذلك لا بد من إقامة كاملة فيها الغذاء والدواء، والتلفزيون لم لا.

الأسمر كان يجيد التجارة، لكنها لم تحالفه، وعمل كثيرا في القطاع الفلاحي وهو عمل موسمي أجره لا يغطي تعبه كما يقول، ودفعه الجوع في بلاد الغربة مرات إلى السرقة ودفع ثمنها باهظا من عمره.

الأسمر الذي كان يعمل في الأيام الدافئة في التجارة متنقلا بين الأسواق، وعلى البسطات في شوارع العاصمة الإيطالية، وقد أجبرته الظروف على السرقة، فهو يكره الجوع ككل البشر العاديين.

يدعي الأسمر أنه ابتدع إقامة شتوية مريحة نوعا ما، أو على الأقل أفضل من العراء، وهي أن يرتكب جرما لا يزيد عقابه عن ثلاثة أشهر تبدأ مع نهاية الخريف وتنتهي مع إطلالة شمس الربيع ليعود إلى الحياة.

ألا يستحق الدفء في الشتاء الأوروبي بعض التضحيات؟ كذلك الوقاية من «الغول» غير المرئي، والذي يصطاد العباد في الشوارع وحيثما يتجمعون، تستحق أن يلزم الناس بيوتهم أياما تحددها السلطات ومن ورائها الجيش الأبيض ليظل وحده كالكلب الشارد كما يتندر التونسيون الذين يشجعون على الالتزام بالحجر في المنازل خلال هذه الأيام العصيبة. يقول الأسمر، وهي كنية اكتسبها من لونه الحنطي الداكن، إنه في التسعينات لا وجود لوسائل تسلية في السجن غير قناة التلفزيون الرسمي (راي أونو)، والتي كانت برامجها مملة في مجملها، عكس منازل اليوم التي تتوفر على تلفزيونات وآلاف المحطات، وهواتف ذكية وكمبيوترات وإنترنت وآلات تصوير رقمية، ومطبخ.

ظاهرة السجن مقابل الدفء صار يعرفها كثيرون ممن هاجروا حين كانت إيطاليا دون تأشيرة حيث كانت لا تطرد المهاجرين إلا إذا اقترفوا جرائم خطيرة، ويبدو أن الأسمر ليس هو من ابتدعها، ذلك ما يظهر في حكايته عن شاب مغربي حل بروما وهو في العشرين، لكنه كان لا يريد أن يكوّن ثروة من تجارة المخدرات، أو يحصل على إقامة بالزواج من عجوز إيطالية ميسورة الحال، هو أتى ليدرس ويتحصل على شهادة جامعية، فأشار عليه العم عمار أقدم المهاجرين التونسيين في روما أن يدخل السجن فهناك يدرسون ويتخرجون، وفعلا يقول الأسمر إن هذا الشاب دخل بتهمة مخدرات لست سنوات درس خلالها وتخرج وهو الآن يعمل مترجما، حتى الأسمر يتقن اليوم اللغة الإيطالية قراءة وكتابة، ويدعي أنه خبير في اللهجات الإيطالية من باليرمو إلى نابولي. يهون السجن من أجل مرتبة اجتماعية كما يهون الحجر الصحي من أجل حياة بلا سقم.

أسوأ ما في السجن، كما يقول الأسمر الذي يدعي أيضا أنه خبير في هذا المجال، هو أن تعد الأيام فهي بذلك تطول مهما كانت قصيرة، لذلك كان يفكر كيف يعيشها كما في الحرية، أي خارج الأسوار. ويقصد بذلك أنه لا بد أن يؤثث المرء يومه حتى لا يصاب بالضجر.

وحين يستبد القلق بالأسمر، كان يختار أغنية يحفظها الجميع أو أصدقاؤه، ولا توجع القلب كما يقول، يرفع صوته تدريجيا، يشاركه الذي بجانبه ثم الذي بعده، وهكذا ينظم احتفالا بأغنية دون أن يبالغ في هذه العادة. المشاركة في الغناء تطرد الهواجس وتطارد الملل لمن يعيش وحيدا أو من يعيش في مجموعة.

بقول الأسمر، أنا اليوم أعيش بمفردي فهنيئا لمن يعيش في عائلة، لكنني لا أخاف الوحدة كما في الغربة، المدينة التي تربيت فيها ولي فيها أقارب وأصدقاء.

أما في الليل ومنذ الأيام الأولى من السجن، يختلق الأسمر حبيبة في خياله، وغالبا ما تكون حبيبته التي تركها في الحارة، يسامرها ويواعدها ويحلم معها بحياة هنيئة. أما في الحجر يقول الأسمر، هنيئا لكم اليوم تحاكون وتسامرون من تريدون من الأصدقاء والأحبة والأهل بالصوت والصورة مهما بعدت المسافات. في السجن، دائما هناك بقعة ضوء يرى الأسمر من خلالها الحياة في الحرية، هكذا يسمي الحياة خارج الأسوار، بقعة الضوء تجعله يشعر دائما أن الغد أفضل، وأنه هناك حياة في سلام.

يحب صالح الأسمر المطبخ، ففي السجن لا يوجد هذا الركن المزين بالطناجر وعلب البهارات، كما لا توجد أقلام زينة ولا ألوان، ولا حتى أجهزة تبث الموسيقى التي نحب، يقول إنه كان يقضي جزءا من الليل يطبخ طعاما تقليديا على فتيلة مغمسة في الزيت، ليس جوعا ولكن حصة من التسلية، المطبخ مجال للإبداع في أي لون أو غرزة، يضطره لفك جميع الخيوط وإعادة نسجها من جديد، وهذا الأمر يزيد من إرهاقه النفسي والوقت الذي يحتاجه.

يمتلك جمال أبوعليان متحفا أثريا في منطقة الزنة جنوبي القطاع، تعرض للدمار خلال عدوان عام 2014 ولم يتم إعماره حتّى هذه اللحظة.

وينتظر الرجل الوقت الذي يكون فيه قادرا على توفير مكان واسع يتمكن من توزيع كلّ القطع الأثرية التي يملكها بداخله. ويروي، أنّه منذ حوالي ثلاثين سنة يهتم بجمع القطع الأثرية، التي تحمل إشارات ودلالات لها علاقة بعصور بشرية مختلفة، أهمها الكنعانية والبيزنطية والمملوكية والأموية وغيرها.

ومن بين المقتنيات التي يملكها أبوعليان، السيوف والكاميرات القديمة في أي لون أو غرزة، يضطره لفك جميع الخيوط وإعادة نسجها من جديد، وهذا الأمر يزيد من إرهاقه النفسي والوقت الذي يحتاجه.

وتستخدم القطع التي ينتجها الرجل في الأفراح والمناسبات السعيدة، إذ أنّ الإطارات الكبيرة، تستعمل كإناء تُوضع فيه زينة الأفراح والورود وغيرها، وأحيانا تضع بعض العائلات فيها الحلويات التي يتم تقديمها كضيافة للمهنئين.

أمّا عن القطع الصغيرة، والتي يصممها الرجل باستخدام مراوح صغيرة، فتستعمل كعلب للهدايا، والبعض يفضل استخدامها، كوعاء حافظ للمصوغ الذهبي النسوي ولمختلف أنواع الحلوى والسكاكر.

ويتميز عمل أبوعليان، بعدم قبوله للخطأ بتاتا، ويشير إلى أنّ أي خلل في اختياراته على الألوان المأخوذة من الأثواب الفلسطينية التي كانت ترتديها النساء في الأيام الخالية.

يمكن للواحد أن يقضي فيه ساعات في اليوم يصنف ويبتكر ألوانا من الأطعمة المالحة والحلوة، هكذا أنا أقضي أيامي في الحجر، لا وقت لدي ليتوه فكري في الفراغ.

قد يستحق الشتاء الدافئ ثلاثة أشهر من السجن، ويمكن أن تستحق شهادة جامعية سنوات وراء القضبان، لكن حتما يستحق الصيف القادم وبهجة الحياة فيه أن نضحي بأيام من الشتاء في الحجر المنزلي نصالح فيها ذواتنا وعائلاتنا ونشتاق فيها للشارع والبحر.

عيشوا الحياة وراء باب النجاة

اِبعد عن الفايروس وغنّ له

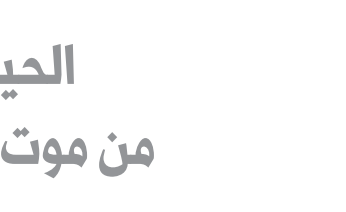

الوقاية من العدو غير المرئي تستحق أن يلزم الناس بيوتهم أياما ليظل الفايروس وحده شاردا ثم يغادر، كما يتندّر التونسيون

فلسطيني يبدع تحفا تراثية من النفايات

غزة – خيوط صوفية، وأغطية نفايات صلبة، وقطع حديد أقرب للتالفة، هي عدة فنان فلسطيني يعمل على إعادة تدوير النفايات، ليشكل قطعا فنية بالغة الجمال، يحكي من خلالها قصصه وأفكاره.

يتأنى جمال أبوعليان (56 عاما) كثيرا قبل اختياره لمجموعة ألوان الخيوط الصوفية التي سيعمل من خلالها على تشكيل تحفه الجمالية، التي تحمل بين تفاصيلها ذكريات لها علاقة بالتاريخ الفلسطيني والتراث العربي.

يمرّ وقتٌ يصمت فيه الرجل ليحدد الألوان الأجمل من وجهة نظره، ويتناول إطارا حديديا باليا، ليبدأ مباشرة في نسج الخيوط الصوفية بين أسلاك وفتحات الإطار الذي هو بالأساس غطاء لمروحة كهربائية تالفة، ويستمر بفعله ذاك إلى أن يصنع القطعة الفنية المطلوبة.

ويقول أبوعليان "فكرة تحويل النفايات الصلبة والقطع البالية، لأشكال فنية نابضة بالحيوية، جاءت لتعبئة وقت الفراغ الذي أعيشه في يومي من ناحية، ومن الناحية الأخرى، فأنا أهدف للحفاظ على التراث الشعبي".

وعن استلهامه للفكرة، يتحدث الرجل أنّه اعتاد زيارة الأسواق التي يباع فيها الأثاث والقطع القديمة بشكل دائم، وفي مرات كثيرة لاحظ إطارات المراوح المستعملة التي تتلف بعد استخدام المحركات الخاصّة بها.

ويتابع "شدّني ذلك الأمر، لاسيما وأنّي كنت أعلم أنّ تلك القطع الحديدية البسيطة يمكن تحويلها لأدوات للزينة والجمال، فبدأت بجمع تلك الإطارات، وأحيانا أدفع مقابلها ثمنا زهيدا وفي أخرى آخذها مجانا".

ويشرح أبوعليان أنّه يستخدم إلى جانب تلك الإطارات، الملابس الصوفية القديمة المصنوعة من خيوط الصوف الأصلية التي لا تضم بينها أنسجة نايلون، ويوفرها كذلك من الأسواق القديمة بمبالغ زهيدة.

ويجمع الرجل المكونين المذكورين داخل فناء بيته الصغير، إذ يعمل في البداية على رسم صورة للشكل النهائي الذي يرغب في إنتاجه بمخيلته، ثمّ يختار الخيوط المناسبة لذلك الغرض، ليشرع فورا في التنفيذ.

ويحتاج الرجل في القطعة الواحدة التي ينتجها وقتا طويلا، فإذا ما اشتغل بها لمدة ثلاث ساعات يوميا، فهو بحاجة لمدة تصل أحيانا إلى عشرة أيام للقطعة الكبيرة، أمّا الصغيرة فتستغرق وقتا أقل يصل إلى خمسة أيام.

وعن الأشكال التي رسمها أبوعليان على قطعه الفنية، يقول إنّه يختار رموزا من التراث الفلسطيني ويعمل على تشكيلها باستخدام حسابات بسيطة، لا يستخدم لضبطها أوراقا أو آلات حاسبة، كونه صار مع الخبرة مدركا جيدا لما يريد صنعه.

ويذكر أنّه يختار الألوان المتناسقة لتصميم القطع التراثية، ويركز في بطراز صنعها الأول، إضافة للأثواب التراثية، وأواني التقديم والضيافة المختلفة، من صواني وأباريق ماء وكؤوس نحاسية صغيرة وكبيرة.

التحف التراثية تستخدم في الأفراح والمناسبات السعيدة، كأوان تُوضع فيها الورود والحلويات وأخرى تقدم هدايا للأحباب

ويضيف أنّه "عانى كثيرا من إهمال الجهات المعنية التي تواصل معها على مدار أكثر من ست سنوات، لكنّه لم يجد منها أيّ تجاوب، وفي أحسن الأحوال كان يحصل على وعود كلامية لا يتم تطبيقها على أرض الواقع".

ويحلم أبوعليان بافتتاح متحفه من جديد، وإعادة الروح فيه، ليكون جاهزا لاستقبال الزوار من كلّ أنحاء العالم، ليتعرفوا عبره على تاريخ الأرض وهويتها التي يدلل كلّ شيء فيها على أنّها عربية فلسطينية خالصة.

مواد من القمامة